الطالبة الجامعية الاستثنائية

سالم ساري [1]

البدايات: الطالبة والجامعة في سياقات اجتماعية ثقافية مبكرة. تعود معرفتي بهيفاء البشير إلى ما يقارب أربعين عامًا. تحديدًا إلى صيف/ خريف عام 1979، وهو عام تعييني مدرسًا في قسم علم الاجتماع في الجامعة الأردنية، أول جامعة عربية أسعدني العمل فيها، بعد حصولي على دكتوراة الفلسفة في علم الاجتماع من جامعة برادفورد/ إنجلترا (1978). وقد كُلِّفتُ بتدريس مساق «علم الاجتماع الطبي» Medical Sociology لطلبة كلية الطب، وفي نظام للساعات المعتمدة وتداخل الكليات الجامعية وتكاملها كان على الطلبة أن يأتوا إلى حيث هو الأستاذ المحاضر، إلى مُدرَّجات كلية الآداب. وأذكر من طالباتي في هذه المادة، من كلية التمريض: سوسن المجالي، منار النابلسي.. والكثيرات غيرهنَّ من المتفوقات. كما قمتُ بتدريس مساق مبادئ علم الاجتماع الذي حرصت الجامعة الأردنية على تدريسه منذ البداية، كمتطلب جامعة لجميع طلبة الجامعة. وكانت الجامعة تُخصِّص لتدريسه مدرجات أكبر وأكثر اتساعًا لاستيعاب العدد الكبير من طلبة الجامعة، وكان علم الاجتماع في الجامعة الاردنية- كما تم تقديمه وترسيخه على أيدي رائدِهِ الشاب النشط، آنذاك، الدكتور سري ناصر- مادةً «شعبية» جذَّابةً يحرص طلبة الجامعة، بشتّى تخصصاتهم، على الإقبال عليها والاستمتاع بدراستها، خيارًا أو قرارًا.

(1) أستاذ علم الاجتماع.

وأذكر أنني، وبينما كنتُ مسرعًا في دخول المحاضرة الأولى لي في تدريس مبادئ علم الاجتماع (أعتقد أنها كانت في المدرج القديم الرحب لكلية الحقوق)، استوقفتني طالبة تقف مع مجموعة صغيرة من زميلاتها، سارعت بالترحيب بي وتقديم نفسها مبتسمةً بثقة واعتزاز: أهلًا دكتور، أنا طالبة عندك في هذه المادة!.. أنا «هيفاء البشير»، وهذه قريبتي (اسمها «شادن» على ما أذكر).

رحبتُ بها مبتسمًا، ثم هممتُ بدخول باب المدرج حتى لا أتأخر على طلبتي المنتظرين في الداخل.

لم يكن من عادتي أن أهتمَّ بالتفاصيل، ولكنْ، استوقفتني التفاصيل هذه المرة، فسألتها، وهي تتبعني وقريبتها للدخول بعدي إلى المحاضرة: هل أنتِ زوجة المرحوم الدكتور محمد البشير؟!.. قالت: نعم!..صممتُ بعد وفاته أن أواصل تعليمي الجامعي، رغم سني الأكبر من الطالبات كما ترى، وأعدك أنني سأكون طالبةً مواظبة أؤدي واجباتي مثل أصغر طالبة عندك!».

وفي رحاب تلك البدايات، لا بد أن أقول إنَّ ما قدَّمتْهُ هيفاء، طالبتي الجامعية الجديدة، الناضجة الواعدة، من صِيَغ للتعريف والتعهد، قد ارتبطتْ في ذهني بملاحظتين للمقارنة والمتابعة، ضمن السياقات المبكِّرة للجامعة والمجتمع والثقافة المجتمعية الأردنية:

الملاحظة الأولى، هي أنَّ هيفاء الطالبة الأكبر سنًا كانت صادقة في تقديمها لنفسها، مُدركةً راغبةً في كلِّ ما كانت مُقدِمةً عليه من مسؤوليات دراسية جامعية، ومصممة واثقة على النجاح فيه، وقد برَّت بوعدها، وقامت بواجباتها الدراسية كاملة، واستحقَّت النجاح الكبير فيه بأهليةٍ واستحقاقية، ولم يحدث أن طلبت من أستاذها، تلميحًا أو تصريحًا، مراعاة ظروفها غير العادية، أو الرجاء بـ «تنجيحها»، كما كانت العادة (المزعجة والمألوفة لكثير من الطلبة في ظروف عادية تمامًا!).

أمّا الملاحظة الثانية، فهي أنَّ هيفاء الطالبة الناضجة الواعية لم تقدّم نفسها تقديمًا عشائريًّا تقليديًّا صارخًا، أو تعرّف نفسها تعريفًا مناطقيًّا ضيقًا، كما كان سائدًا مقبولًا (بل ومُشجَّعًا عليه) آنذاك في مجتمع الجامعة الطلابي والأكاديمي والإداري، وهو النسخة المصغّرة عن المجتمع الأردني الكبير، إذ نجحت في هذه الفترة الحرجة (حقبة السبعينيات) كلٌّ من الثقافات الفرعية الخاصة للشرائح الاجتماعية المختلفة، والثقافة المجتمعية العامة للمجتمع الكلي، في حمل أفرادها على الاعتقاد بأنَّ إقحام العشيرة للانتساب والتعريف والتأطير، في شتى العلاقات والتفاعلات: العلم والتعليم، السياسة والاجتماع، الدوائر والمؤسسات، تضمن لهم، حقيقة أو خيالًا، توقُّع كثيرٍ من المزايا والمكاسب، وتدرأ عنهم كثيرًا من المضار والخسائر!!

ولا بدَّ لكلِّ متابعٍ أمين للسيرة الذاتية لهيفاء البشير الطالبة في مراحلها الابتدائية والثانوية والعليا في فلسطين، وفي مراحلها الجامعية وإنجازاتها المجتمعية الإنسانية المتواصلة في الأردن، أن يرى أنّ هذه الفتاة المؤمنة بدينها وعروبتها، لم تكن يومًا لتتجه في أي محطة من محطات عمرها المديد إلى تعريفات ضيقة للهوية، أو أنماط هشّة للإنجاز، أو أشكالٍ نفاقية للانتماء؛ فنابلس كما السلط، والقدس كما عمان، وكلاهما، كما القاهرة وبغداد، لا تفصل بينها إلا مسافات سائلة للعاطفة والحب، للعمل والإنجاز، وللإيثار والتضحية!!

التطورات والإسهامات والريادة والقيادة النسائية التنموية: لم تتوقف هيفاء البشير عند الحصول على الشهادة الجامعية الأولى، ولم تقف ساكنة بانتظار «الكرتونة» متعطلةً عن الحركة (بل لعلي أقول إن بكالوريوس التمريض 1983 كان بالنسبة لها تحصيل حاصل!)؛ فقد مضت متحركةً ببرنامج مكثف للعمل النسائي في التنمية والتحديث والتمكين، بالتأسيس والمشاركة والتطوير (تأسيس ورئاسة للاتحاد النسائي الأردني، جمعية التأهيل النفسي، اتحاد الجمعيات الخيرية، اتحاد ائتلاف مؤسسات المجتمع المدني الصحيَّة.. والكثير غيرها).

ولا بدَّ للراصد المُقيِّم لبرنامج العمل التغييري الطموح الذي اختطَّته السيدة هيفاء للنهوض بالمرأة الأردنية تنويرًا وتطويرًا، وتمكينًا، من تسجيل ملاحظتين:

الملاحظة الأولى، أنّها لم تنطلق في برنامجها النسائي التغييري التمكيني بهدي نظريات نسوية ثورية تحريضية (ماركسية مثلًا)، ولم تأخذ لها قدوةً غربيةً غريبةً، ولم تسعَ لتنفيذ برنامجها بأموال أجنبية مريبة – رغم شحِّ الموارد والمصادر في مجتمع الندرة والعسرة آنذاك، وإنما اتجهت هيفاء، ومنذ البداية، اتجاهًا عربيًّا أردنيًّا نقيًّا بمقاربات ومناهج وبرامج عربية واقعية، فنالت المباركة والتأييد والدعم الرسمي والشعبي معًا، وحققت في مشاريعها التنموية الإنسانية قبول الخاصة وتقبل العامة، في مجتمعها المحليِّ والكبير، بنتائج ميدانية ملموسة متماسكة، في الفكر والممارسة.

ويمكن الملاحظة، في المقابل، أنَّ النظريات والمنطلقات النسوية (الهجينة) لغيرها من النساء الأردنيات والعربيات هنا وربما في أي مكان آخر (نوال السعداوي، في مصر مثلا)، لم تَقُد إلى تغييرات جوهرية صلبة في وضعية المرأة العربية، وإنَّما آلت إلى غربة واغتراب المرأة الأردنية/ العربية عن نفسها ومجتمعها وواقعها المغاير.

الملاحظة الثانية، أنّ السيدة هيفاء لم تعمد يومًا، في برنامجها للتغيير والتنمية والتحديث، إلى الاستعجال أو الاستفراد أو الاستفزاز، وإنّما امتلكت في حركتها للاستطلاع والإقناع، قدرةً هائلةً على اكتساب الثقة – الرسمية والشعبية معًا– (والثقة هنا هي رأسمال اجتماعي ثقافي تاريخي، أو هي، كما يرى خبراء التنمية، بحكمة معاصرة، فضيلة تنموية كبرى، لازمة في مجتمع تقليدي خجول متردد، تبدو مكوناته الرئيسة عصيَّةً على التغيير، رافضة لمساراته المجهولة، وغير مشجّعة على قبول نتائجه غير المضمونة).

وبإنجازاتها النسائية التنموية الهائلة، صنعت هيفاء بنفسها ولنفسها نموذجًا نسائيًّا مبكرًا نادرًا في التغيير والتأثير... نموذجًا تنمويًّا رائدًا بالغ القوة والبساطة، وباذخ النقاء والسماحة.. نموذجًا ما يزال حيًّا قائمًا فينا وبيننا، وهو وإن كان فريدًا مستعصيًا على

الجحود والنكران وبعيدًا عن المظهرية والادعاء، فإنه نموذجٌ تنمويٌّ تراكميٌّ ذو قابلية ومرونة للبناء والتطوير، يعدُ بنتائج عملية في التغيير والتأثير.

اليوم.. الرائدة المعاصرة والأستاذ القديم: لم يكن يدور في ذهني، ولو للحظة، أنَّ تدريس مادة سوسيولوجية تمهيدية واحدة لطالبة التمريض الواعدة، سيجعل مني أستاذًا لها مدى الحياة!!

يحلو لهيفاء البشير، رائدة العمل النسائي الأردني الكبير، أن تبادر الى الاعتراف، بنبل وشجاعة، إلى التعريف بي، بفخرٍ واعتزاز، بأني أستاذها، وهي تُصرُّ على هذا الاعتراف والتعريف، في كلِّ مناسبة، ولكل الحاضرين في منتداها «الرواد الكبار»!.. وهي، وإن كانت طالبتي يومًا، فأنا الآن أحد طلاب مدرستها التنموية المجتمعية الراسخة، الذين يعرفون ويعترفون ويفتخرون بإنجازاتها الهائلة التي صنعتها في مسيرة نضالية طويلة لمجتمعها الكبير، دون استئثار أو استكبار.

هذه هي هيفاء البشير، كما أراها اليوم، في محطة واحدة مبكِّرة من محطات حياتها: شابَّةٌ فائقة العزم والإيثار والإصرار.. كما هي فائقة التواضع والبساطة والجمال.

وأراها اليوم، في كل مراحل حياتها، مناضلةً صلبةً واقفةً شامخةً، تمامًا كما تبدو، بنزاهةٍ وتجرد، بعيون أحد أقرب الناس إليها، ابنها البكر الجميل، الدكتور مازن:

»... امرأة آمنت بربِّها وبدورها في مجتمعها الصغير والكبير.. رفضت أن تعيش على الهامش، قبلت الاختلاف واحتوتْهُ.. تعاملت مع الصعاب بروح رياضية، وما زادتها الكبوات إلا عزمًا وتصميمًا وحكمة. كان كلُّ يوم يشكِّل لها تحديًا من نوع جديد!.. رفضت أن يأتي صباحٌ جديد بغير مشروع جديد.. كانت في مَهَمّة، ولا بدَّ منها، وإن طال السفر«!!

وأخيرًا أقول إنْ كنا نهدي تحية إعجاب وإكبار لمكرّمتنا الكبيرة هيفاء البشير، صاحبة العمر المديد والعزم الشديد، رئيسة منتدى الرواد الكبار، فإنَّ هيفاء تهدينا لحياتنا أنماطًا من

الحقيقة والحكمة ما هو أعظم وأكرم؛ فقد جعلتنا ندرك بثقة متعاظمة النقاط الثلاثة التالية: ليست الحياة مجردةً -بحدِّ ذاتها- هي المهمة.. وإنما المهم هو نوعية الحياة، وليس العمر معطى بيولوجيًّا وراثيًّا خالصًا.. وإنما العمر معنى ثقافيٌّ مكتسب، كما أنّ المهم في هذه وذاك هو القيمة الإنسانية المجتمعية المضافة!!